حديث طائفي صريح (1 من 4) ـ الطائفية بين التنوير والتثوير

الكاتب : مجاهد مأمون ديرانية

التاريخ : 19 يناير 2013 م

المشاهدات : 4182

تنبيه ورجاء: هذا حديث من أربع حلقات، أتمنى ممّن قرأ واحدة منها أن يقرأ الحلقات الأخرى حتى لا يخرج بفكرة ناقصة أو يفهم المسألة على غير وجهها، ولولا أن أطيل لجمعتها كلها في مقالة واحدة.

شاهدت من قريب مقطعاً مصوّراً لندوة أُقيمت في بلد عربي وشارك فيها عدد من الإعلاميين، كان موضوعها "المحطات الفضائية الإيرانية الطائفية المحرّضة".

وقد دعا المتحدثون إلى وقف بث تلك القنوات على القمر العربي، وفي لحظة من لحظات الندوة انجرف أحد الإعلاميين المشاركين في موجة من موجات الحماسة، فدعا إلى وقف القنوات السنّية التي تحرض على الطائفية أيضاً، ومثّل لها بفضائيات معروفة تركز على الهوية السنّية وتحذر من المؤامرة الشيعية الفارسية على البلدان العربية والإسلامية.

لمّا سمعت ما سمعت استرجعت وقلت لنفسي:

آهٍ منّا نحن المسلمين السنّة، كنا مغفلين وسنبقى مغفلين؛ لم تعلّمنا الأيامُ الماضيات ولا يبدو أنها ستعلمنا الأيام الآتيات.

في قصة "أليس في بلاد العجائب" يقول الملك: "يا لهذا العناء الهائل الذي عانيته اليوم، لن أنساه ما حييت".

فتقول الملكة: "بلى، سوف تنساه إذا لم تكتبه".

من أجل ذلك قررت أن أكتب هذه المقالة.

* * *

لقد قرأت التاريخ يا سادة، فما وجدت أمة هي أكثر طيبة وأشد بلاهة منا نحن المسلمين، فإنّا لا نزال نُلدَغ من الجحر الواحد منذ قرون وما نزال نمد إليه اليدَ غافلين.

أما آن لنا أن نفتح أعيننا وأن نحبس اليد فلا نمدّها إلى الجحر المسكون؟

إن من أبرك بركات الثورة السورية (وما أكثرَ بركاتها!) أنها أسقطت المشروع الاستعماري الصفوي الشيعي في العالم الإسلامي، وهو مشروع خطير خبيث لم يعتمد على المدفع والدبابة، إنما اعتمد على سذاجتنا وطيبة قلوبنا، ففتحنا له القلوب والعقول بلا عناء.

لقد شاهدتم الثوارَ في سوريا كيف يحرقون صور الشاطر حسن ويدوسونها بالنعال، أتظنون أنهم اشتروها من المطابع والمكتبات؟

لا يا سادة، إنما نزعوها عن حيطان بيوتهم حيث كانت هناك منذ ستّ سنين.

هذا المجرم الكبير استطاع أن يتسلل إلى بيوت السوريين وأن يتسلل إلى قلوبهم، فمنهم من علق صورته على جدران البيوت ومنهم من علقها على جدران القلوب.

ما زلت أذكر حرب تموز في لبنان، يوم كنت وكان أكثر أفراد عائلتي غرباء، قطرات وسط البحر العُباب، قطرات تسبح عكس تيار النهر الزخّار.

ما أكثرَ ما صدمني الناس وما أكثر ما صادموني في تلك الأيام: "إذن أنت تحب أن تكون الغلبة لليهود؟"

"لا يا أصدقائي، أنا لا أحب أن ينتصر اليهود، ولكني أحب أن يُهزَم حزب الله". "لماذا يا فيلسوف الزمان؟"

"لأن الشيعة أشد عداءً للسنة من اليهود.

لأن اليهود عدو ظاهر والشيعة عدو خفي.

لأن معركتنا مع اليهود معركة محسومة وإن طال الزمن،

أما الشيعة فعدوٌّ باقٍ إلى آخر الزمن.

ويلكم، أما ترون ما يصنعون بإخوتنا في العراق؟

هل صنع اليهود في فلسطين عُشر معشار ما يصنعه الشيعة بأهلنا السنّة في العراق؟

أما لكم عيون؟

أما لكم عقول؟

أما لكم قلوب؟

... ما أكثر ما ذهبت تلك الأسئلة مع الريح وبقيت بلا جواب، فلما ثار أهل سوريا الكرام جاء الجواب.

* * *

كلما كتبت كلاماً كهذا الكلام أتصور بعين الخيال من يقفز في وجهي من المتحذلقين ليهتف قائلاً: يا لك من طائفي بغيض! ويلٌ لسوريا منك ومن أمثالك!

لا يضرني هؤلاء ولا يضر سوريا أمثالي، إنما يضرها أمثالهم.

وما ضَرّ الأمةَ في مواضي أيامها أحدٌ أكثرَ مما ضَرّوها، لأن كل واحد من الأمة واقف على ثغرة، فأيّما أحدٍ منا أخلى موقعه دخل الشرُّ من الموقع الذي أخلاه.

وأكثر الناس ضَرّاً ليس مَن يخلي موقعه مللاً وكسلاً، إنما هو من يخليه اعتقاداً بأنه لا شرّ يأتي من قِبَله، فيأتي من قِبَله أكبر الشر وأعظمه.

لا يا أيها الغاضبون مني ويا أيتها الغاضبات، أنا لست طائفياً ولكني امرؤ عاقل؛ وقد قرأت التاريخ؛ وأخشى من المستقبل.

هذه ثلاثٌ صنعَتْني وأنتجت هذه المقالة.

الطائفي هو الذي "يثوّر" الناس وينفخ في النار، أما العاقل فهو الذي "ينوّر" الناس ويَحْذر أن يقع في نار الآخرين.

ماذا تصنع إذا رأيتَ قوماً حولك يوقدون نيرانهم؟

تغمض عينيك وتخطو حتى تسقط في النار؟

لا يصنع ذلك إلا أحمق، ومن صنعه فلا بكته عينٌ ولا رثاه شاعر!

يقول العاقل: أنا أدرك أنك خصم لي يا أيها الطائفي الآخَر، وقد قرأت أخبار ألف تجربة بيني وبينك فقرأت فيها تفاصيل ألف مكر وألف غدر وألف خيانة، وقد عزمت على أن أحْذر منذ اليوم مكرك وغدرك وخيانتك، ولكني لا أمدّ يدي عليك باعتداء ولا أدعو إلى فتنة.

أما الأحمق فإنه يغمض عينيه ويصمّ أذنيه ثم يقول: عن أي شيء تتحدثون؟

إني لا أرى شيئاً ولا أسمع شيئاً مما تصفون.

أقول: ومنذ متى كان العُمْي يبصرون أو كان الصُّمّ يسمعون؟

* * *

افتحوا أعينكم يا أيها المسلمون.

لقد لعب الفرنسيون بسوريا منذ وطئت أرضَ سوريا نعالُ الفرنسيين، وكانت بعض الأقليات هي الحربة التي اخترقوا بها استقلال البلاد.

لا تقولوا ذاك عهد مضى؛ إننا ما نزال نعاني من آثاره الكئيبة إلى اليوم.

ثم جاءت أميركا اليوم تتم اللعبة، ومرة أخرى تريد أن تنفخ في نار الأقليات وأن ترتقي على ظهورها لاحتلال سوريا من جديد.

قبل أشهر قليلة نشر أحد الفضلاء في العراق مقالة قيّمة، هي نصيحة وجّهها إلى ثوار سوريا الكرام.

الرجل يقول لكم: لا ترتكبوا الخطأ القاتل الذي ارتكبناه في العراق.

لقد ضحينا بهويتنا السنّية في سبيل المشروع الوطني الذي أردناه لكل العراقيين، فيما كان غيرنا يعمل لخدمة مشروعه القومي أو لخدمة مشروعه الطائفي، فكانت النتيجة أننا صرنا ضحية المشروع الذي أهرقنا في سُقياه دماءنا ورفعنا بنيانه بأكوام من جثث أبنائنا.

خرج الأولون بدولة واحتل الآخَرون ما بقي من العراق ثم وهبوه لإيران، وبقينا ـ نحن المسلمين العرب السنّة ـ بلا حرية ولا

كرامة ولا وطن.

المقالة عنوانها "حتى لا تُسرَق الثورة السورية" والكاتب هو المفكر والداعية العراقي المعروف الشيخ طه حامد الدليمي، فابحثوا عنها واقرؤوها، ولكن لا تقرؤوها مرة بل ثلاث مرات، ولو حفظتم بعض كلماتها غيباً وردّدتموها من بعدُ صباحاً ومساء فخيراً تصنعون.

* * *

يا أيها المسلمون، يا أهل سوريا الكرام:

جاهدوا لبناء وطن حر كريم، ولكن لا تضيّعوا الهوية.

في سوريا أقليات عرقية ودينية وطائفية من حقها أن تدافع عن هوياتها الثقافية واللغوية والدينية، لا يُعاب على أي منها أن تفعل، على أن لا يكون لها مشروع خاص يستقل عن مشروع الوطن، فسوريا لكل من تلك الأقليات وسوريا لها جميعاً مع الأكثرية العربية المسلمة.

وإذا كان ذلك حقاً للأقليات فإنه حق للأكثرية من باب أَولى؛ من حق الأكثرية العربية السنّية أن تحافظ على هويتها الثقافية واللغوية والدينية، ولكنها لن ترفعها هوية مفرّقة بل هوية جامعة، فالوطن الواحد يتسع للجميع.

(وللحديث بقية فاقرؤوها)

الزلزال السوري

المصادر: